

التقابل في سورة «يوسف» — عليه السلام —

The Antithesis in Surat "Youcef" - Peace be Upon him -

د. زيتونة مسعود علي

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة الشهيد حمة لخضر - الوادي (الجزائر).

zitouna2001@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/07/26

تاريخ الإيداع: 2020/04/08

الملخص:

التقابل بما يُمثِّله من تضاد ومفارقة، هو مظهرٌ من مظاهر الكون وانعكاس للحياة وللواقع، وأساس النّفس البشرية. ولعلّ أفضلّ الفنون الأدبية تعبيراً عن الحياة وعن الواقع هي القصة. فهذه الأخيرة تقوم على التّقابل في الشخصيات، وفي المواقف، وفي الأفكار... وذلك لالتصاقها بالواقع أكثر، ولقدّرتها على التّعبير عن هذا التّناقض وكشّفه. ولهذا فقدّ اعتمد القرآن الكريم كثيراً على التّقابل، واهتم بالقصة اهتماماً كبيراً.

ومن بين السور القرآنية التي اعتمدت على التّقابل من جهة، وشكّلت قصة مكتملة من جهة أخرى، هي سورة «يوسف»، وهي موضوع بحثنا الذي سنبيّن فيه التّقابل في هذه السورة. الكلمات المفتاحية: التّقابل، القصة، سورة «يوسف».

Abstract:

The antithesis and what it represents of contrast and paradox is one of the aspects of the universe, life reflection of reality, and the basic of human soul. In this perspective, the story can be considered as the best literary genre representing real life. The story builds upon the antinomy of characters, standpoints and thoughts. This is due to its connection to real life and its ability of identifying and expressing this paradox. For this, the Qor'an has focused largely on antithesis and paid much attention to the story.

In this context, we can mention 'Surat Youcef' as a topic of our research, which on the one hand relies on the antithesis, and represents a comprehensive story on the other.

Keywords: Antithesis – Story – Surat "Youcef"

تمهيد :

يُمثِّل القرآن الكريم البلاغة العالية، والأساليب الراقية، والمعاني السامية، والألفاظ الدقيقة، والتراكيب المتناسقة. فقد استخدم مختلف الوسائل الأسلوبية والدلالية والفنية ، لتوضيح معانيه وإقناع سامعيه، والتأثير في نفوسهم، ومن ثمّ الوصول إلى أهدافه وغاياته. ومن بين الوسائل البارزة واللافتة للانتباه في القرآن الكريم " التقابل"، و" القصة"، وهما ظاهرتان اهتمّ بهما اهتماما كبيرا، واحتلّتا مساحة واسعة فيه.

ولمّا كانت للقصة القدرة الكبيرة على تصوير المتقابلات، وكشف الواقع عمّامة المبني على هذه المتقابلات، اخترنا سورة «يوسف» التي تشكّل قصة مكتملة لندرس التقابل فيها.

1- تعريف التقابل :

التَّقاَبُلُ لغة مصدر تَقَابَلَ، وهو من مادّة (قبل). وقد ورد فيها عن الجوهري (ت393هـ) قوله: "المقابلة: المواجهة والتّقابل مثله"¹. ويقول ابن منظور (ت711هـ): "قَابَلَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ مُقَابَلَةً وقِيَالًا: عارضه. اللَّيْثُ: إذا ضَمَمْتَ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ قَلْتَ قَابَلْتُهُ بِهِ وَمُقَابَلَةُ الْكِتَابِ بِالْكِتَابِ وَقِيَالُهُ بِهِ: مُعَارَضَتُهُ ، وَتَقَابَلَ الْقَوْمُ: اسْتَقْبَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا... وَالْمُقَابَلَةُ: الْمُؤَاجَهَةُ وَالتَّقَابُلُ مِثْلُهُ..."².

ومنه فالتّقابل والمقابلة في اللّغة واحد، ويحمل معنى المواجهة والمعارضة والضمّ . أما اصطلاحا، فيعرّفه السّكاكي (ت626هـ) بقوله: "هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضدّيهما"³، والضدّان هما " صفتان وجوديتان يتعاقبان في موضوع واحد يستحيل اجتماعهما كالسّواد والبياض"⁴.

ولعلّ هذه المعاني اللّغوية تلتقي جميعا مع المعنى الاصطلاحي في كَوْن الجمع بين شيئين أو أكثر وضدّهما وضمّ أحدهما إلى الآخر في الكلام، يُسَكَّلان تواجها وتعارضاً أو تضاداً، أو في معنى التّضاد .

ولعلّ تعريف الشريف الجرجاني (ت816هـ) للمتقابلين وأنواعهما يوضّح ويؤكد ذلك، حيث يقول: "المتقابلان هما اللذان لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة... كالأبوة والبنوة قد يجتمعان في موضع واحد كزيد مثلا، لكن لا من جهة واحدة بل من جهتين، فإنّ أبوته بالقياس إلى ابنه وبنوته بالقياس إلى أبيه... والمتقابلان أربعة أقسام الضدّان والمتضايقان والمتقابلان بالعدم والملكة والمتقابلان بالإيجاب والسلب..."⁵.

ومنه ففي تعريف التقابل لغة واصطلاحا ما يدلّ على وجود شيئين بينهما علاقة الضدّ. وقد استخدم العرب القدماء مصطلحاتٍ مختلفة تصبّ في دائرة الضدّ، وتحمل معناه مثل:

التكافؤ والتناقض والخلاف والتغاير وغيرها...⁶ . ولعل أشهرها وأكثرها انتشارا هما الطباق والمقابلة.

2- تعريف القصة:

القصة لغة من قصصت الشيء: إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء، والقصة الخبر والأمر والحديث.⁷ وقص عليه الخبر قصصا: أعلمه به وأخبره، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها... والقصص: البيان...⁸

ومنه فإن كلمة (قصة) مشتقة من قص يقص قصا وقصصا، ولها معان هي: تتبع الأثر، والإعلام، والخبر، والبيان .

والقصة في الاصطلاح هي " وسيلة من وسائل التعبير الفني ينثرها الكاتب، فيبرز بها ما يشغل الناس من أمور الحياة، وما تتصف به نفوسهم من خلال، وأخلاق، لينصح أو يرشد أو يعظ أو ينقد أو يلاحظ، وهي بهذا لوحة فنية جميلة، تتمدد على صفحاتها ألوان حياة البشر وأنماط سلوكهم وصورة أفعالهم بكل أنواعها المتقاطعة والمتوازية، المتطابقة والمتضادة، ومراة صافية للحياة، إذا أحسن نصيها أعطت أفضل المناهج لتقويم الحياة ونخلها من الشوائب"⁹ .

ومنه يتضح التقاء المعنى اللغوي للقصة بمفهومها الاصطلاحي، ويتجلى دورها في الحياة وفي التربية والتذكير والموعظة. يقول عبد الكريم الخطيب: " نحن حين ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني... فالقصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر... والاشتقاق اللغوي أو القص هو الكشف عن آثار وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها، وإفاتهم إليها ليكون لهم منها عبرة وموعظة"¹⁰ . ولا يكون تتبع الأثر إلا حقيقة، ولا تكون العبرة والموعظة إلا من واقع، لذلك فأحداث القصص القرآني حقيقة واقعة.

فالقصة من الفنون الأدبية التي لها قدرة كبيرة على تحليل الواقع والتعبير عنه، ولها أثر فعال في جلب انتباه النفوس، لما فيها من تشويق وتلهف لمعرفة النهاية وارتياح لحل العقدة وحب وتشوق للاستطلاع¹¹ ، ولعلها أكثر هذه الفنون قدرة على التصوير والتأثير. فهي تتسع لأغراض شتى في الحياة، وتتناول موضوعات كثيرة ومختلفة، وتتمتع بحرية في المعالجة، وفي التنقل بالأشخاص والحوادث. ففيها يرى الإنسان الأحداث تتحرك وتتطور، والعقدة تتأزم وتتصاعد، والأشخاص تتنقل وتتصارع... يراها مشخصة، ويقيمها الحوار أمام عينيه حاضرة حية، فالحوار هو الحاضر- كما يرى توفيق الحكيم¹² .- فيعيشها جميعا ويتجاوب معها، ويتأثر بها.

لذلك كانت القصة هي الأسلوب المفضل لدى الإنسان منذ القديم، فسحرت نفسه، وأسرت قلبه، ووجد فيها ما يريحه ويستويه، وكان العرب لشغفهم بالقصص يطلبون إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يبسط لهم بعض ما كانوا على علم به كقصة أهل الكهف وغيرها¹³.

3 - اهتمام القرآن الكريم بالقصة:

وللأسباب السابقة، اهتم القرآن الكريم بالقصة اهتماما كبيرا، وذلك بتخصيص مساحة واسعة لها؛ حيث جاءت كثيرة العدد، متعددة الموضوعات، متنوعة من حيث الطول والقصر، فكان لها نصيب كبير فيه، فلا يكاد يخلو جزء منها، ومخوّر القصص القرآني هو أوسع المحاور القرآنية¹⁴، فراعى بذلك الميل الفطري للإنسان نحو القصة وغيرها¹⁵. وتردّت كلمة (نقص) وبعض مشتقاتها كثيرا فيه، وسوّيت إحدى قصصه الطويلة باسم (القصص)، فاتخذها وسيلة لتبليغ دعوته وشرح مبادئها، وتحقيق مقاصده وأغراضه.

ومن ثمّ فهي جزء غير منفصل من القرآن الكريم، ولا تخرج عن الطابع العام لأغراضه. فالذي يتتبع قصصه، يجد أحداثه كلّها تدور في محيط الدعوة إلى الله بمعناها العام، كما يجدها تابعة للقرآن الكريم، خادمة لأغراضه، مقرة لما أقره من عقائد وقيم سامية، رافضة لما رفضه من كفر وشرك وأخلاق سيئة. يقول عبد الكريم الخطيب: "لقد كانت القصة في القرآن ركيزة قويّة من ركائز الدعوة الإسلاميّة القائمة على الإقناع العقلي والاطمئنان القلي بما تدعو إليه من الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر"¹⁶.

فالقرآن الكريم حين ذكر قصص الأمم الغابرة ووقائع التاريخ القديم لم يهدف إلى الترفيه والتسلية، إنّما هدفه هو دعوة الناس إلى النظر في تاريخ من قبلهم، والاستفادة من عوامل فناءهم وبقائهم، وأنّ السعادة لا تكون إلا بالإيمان. فقصص القرآن قطع من الحياة الماضية استرجعها الوحي الأعلى للتعليم والاعتبار¹⁷. فهو يتخذ من أحداث التاريخ ووقائعه مجالا للاتعاط والاعتبار، وللدلالة على صحّة رسالة سيّدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وأساسا للدعوة في سبيل الله. أمّا الأحداث التي لا تُحدّث هذا الأثر، ولا تخدم مشروع الدعوة فلا يهتم بها.

فالقصة القرآنية مليئة بالعبر والعظات، حافلة بالمواقف بمختلف أنواعها الرُوحية والنفسية والاجتماعية وغيرها. فهي - وإن تكن سماوية المطلع - بشرية السورة، إنسانية المنازع والعواطف، تتحدّث عن الناس إلى الناس، وتأخذ من الحياة للحياة، وينتفع بها الناس¹⁸. ومن ثمّ فهي تربيّ النفس البشرية وتسمو بالإنسان في كلّ النواحي لتضمن سعادته في الدنيا والآخرة.

4 - أسباب التّقابل في القصة القرآنية عامة:

التقابل مظهرٌ من مظاهر هذا الكون، وبما يمثّله من تضاد ومفارقة وتناقض يُشكّل أساسَ النّفس البشرية و أساسَ الحياة كلّها، ويعكس واقعها. ولعلّ أفضل الفنون الأدبية تعبيراً عن هذه الحياة - كما سابق - هي القصة.

وإذا كان الإبداع عامّة يعتمد على هذا التّقابل باعتباره تعبيراً عن الواقع، وإنّ مساحة غير قليلة من خُيوط الصّراع الفكريّ والنّفسيّ في الأعمال الأدبيّة الحديثة في فنون الشّعر والقصة والمسرحيّة تقوم على تقابل المواقف والأفكار والخطط، أو التّضاد بين الدّاخل والخارج، أو بين ما حدّث من قبل، وما يجري الآن، وهذا هو أساس المقابلة¹⁹، فإنّه في القصة يظهر أكثر لاعتمادها عليه، وذلك لالتصاقها بالواقع أكثر من جهة، ولقدرتها على التّعبير عن هذا التّناقض، وعلى كشفه، وتبيين الفروق الشّاسعة بين طرفيه من جهة أخرى. فالقصة - أساساً - تقوم على الصّراع الذي هو عمودها ومحركها، والصّراع في الأصل هو تقابلٌ بين المواقف والتصرّفات والشّخصيات في القصة، ومن ثمّ فمحرك القصة هو الصّراع، ومحرك هذا الأخير التّقابل .

والتّقابل في القرآن الكريم كثيرٌ ومتنوّع، ولا تخرج قصصه عن هذا الحكم؛ فالتّقابل في القصص القرآنيّ " من أبعاده الثّريّة، وامتداد طبيعيّ للأسلوب القرآنيّ في عرض الحدث، وتصوير المشاهد، ورصد حركات الشّخصيّة، وحالاتها النّفسيّة، وهي تنبع من طبيعة الأحداث المتناقضة، والمواقف المتخالفة"²⁰ التي تعبّر عنها القصة وترمي إلى كشفها. ومن ثمّ يتعدى التّقابل فيها مستوى الكلمات والجمل والعبارات إلى مستوى المواقف والشّخصيات وتحركاتها، وإنّ كان هذا المستوى يظهر في كلمات وجمل وعبارات.

وإذا كان للقصة القرآنيّة أغراضٌ كثيرة تسعى إلى تحقيقها، وأهداف تريد الوصول إليها، فإنّ كلّ موضوعات القصة، وتحركات شخصياتها، ومواقفهم، وصراعاتهم منصبّة حول هذه الأغراض، التي أساسها دينيٌّ ومخوّرهما العامّ هما الإيمان بما يمثّله من إيجابيّة، والكفر بما يمثّله من سلبية. فتصوير الأحداث في القصة يعتمد على عرض قضيّة الإيمان والكفر منذ فجر البشريّة. ويعاد عرض هذه القضيّة في كلّ قصص القرآن، لأنّها هي القضيّة الأساسيّة في الأديان جميعاً²¹.

ومن ثمّ فهي ذاتُ محورين متقابلين تتفرّع عن كلّ منهما قضايا أخرى كثيرة متّصلة بها، مثل: الحقّ والباطل، الطاعة والمعصية، الإخلاص والنّفاق، التّواضع والتكبر، الفضيلة والرذيلة، نصرّة المؤمنين وهزيمة الكافرين، عاقبة الظلم والظّالمين، ثواب العاملين وعقاب الخائبيين ... فتقابل هذه القضايا هي الأخرى، وتتصارع من خلال هذين المحورين المتقابلين، وتلتقي في سياق واحد، ومن ثمّ " تتمثّل الإيجابيّة المكثفة في التّقوى، والأمانة، والسّلم، واللّغة اللينة في

الحوار، ومحاربة الفساد والموقف الصّارم تجاهه في مقابل السّلبيّة المكثفة للطّرف الآخر المتمثّلة في التّكذيب، وعدم التّقوى، الفساد الشّنيع، الانحراف الجنسي، والأخلاقي، العدوانيّة العنيفة الجارحة. وفي الإتيان بأبعاد الطرفين الضّدين بهذا الشّكل التقابلي دور كبير في إبراز القيمة الإيجابية التي يحملها الطّرف الإيجابي، وتعريّة البنيان المهالك للقيمة السّلبيّة التي يحملها الطّرف السّلي²².

ويبرز التّقابل في هذه الأغراض بقوة، كونه يتجلّى في هذا الصّراع وفي هذه المواقف المتناقضة، وهو بالتّالي له القدرة على تصويرها. ومن ثمّ فهذه الأغراض تمثّل عاملاً مشتركاً بين القصة والتّقابل، فيساهمان معا في تحقيقها؛ " إذ يجد المتلقّي مواقف إيجابيّة في مقابل مواقف سلبية، وترتكز عمليّة التّمييز بين الموقفين أو استشفاف التّضاد بينهما على البؤرة السّردية التي قدّم السّرد من خلالها الحدث إلى المتلقّي"²³، وأثّر فيه، وأقنعه بفكرتها.

ومن جهة أخرى، فللقصّة القرآنيّة منبج " يقوم على تحليل النّفوس وتصويرها في حالات شتى: من حيرة وقلق، وعجز ونفاق وخوف وفزع، ومكر وخبث، ويقابلها بصور النّفوس الزّكيّة المطمئنّة العاقلة الواعية، المجدولة على تقوى الله وحبّ الخير، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويتيح الفرصة لخيال المتلقّي أن يتملّى ويتصوّر ويرسم الهيئة ويجسّمها في مخيلته كيفما شاء"²⁴، خاصّة أنّ نوعي هذه النّفوس هما إيجابيّة وسلبيّة، وأنّ الحوار الجاري بينهما من أهمّ الوسائل السّردية التي أبرزت إيجابيّتهم، وذلك للطّبيعة الجدليّة التي تتّسم بها علاقة الإيجابيّة بالسّلبيّة، فقوّة ظهور الشّيء يتوقّف على مخالفته أو تضاده مع ظهور الأشياء الأخرى في المحيط²⁵.

وتأتي القصّة القرآنيّة لتجسّد هذا كلّه وتعبر عنه من خلال نماذج بشريّة من واقع الحياة ماضيا وحاضرا، أي زمن الدّعوة عن طريق أحداث وحركات، ومواقف وتصرفات، وحوار ووصراع وحبكة فنيّة... وحينها يكون التّقديم أجمل، والقبول أسهل، والتأثير أكثر؛ " لأنّ القصّة من أكثر الأساليب الفنيّة تأثيرا في النّفوس، يرى فيها الإنسان ما يراه في حياته من أحداث وأشخاص وحوار، فسحرت بذلك النّفوس وأسرت القلوب"²⁶.

فحين تُعرض قصيّة الإيمان والكفر وما يتّصل بها يزيد الموضوع وضوحا والفكرة جلاءً، والهدف هو إظهار محاسن الأولى وفوائدها، وكشف مساوئ الثانية وعواقبها على الإنسان.²⁷ فهناك نماذج كثيرة يرسمها القرآن لأناس طبيين، كرماء، شجعان، أتقياء ومخلصين، وهي نماذج مرسومة للتّربيع في الاقتداء بها. وهناك نماذج أخرى لأناس فاسدين، وشريين، يتمثّلون في نموذج (الكافر)، وهو نموذج يرسمه القرآن، ليقابل نموذج المؤمن، لتوضيح الفروق بينهما²⁷، ومن ثمّ التّربيع في الأوّل، والتّنفير من الثّاني.

وهي نماذج بشرية يجمع بينها القرآن الكريم كثيرا في القصة، وفي السياق الواحد، والأصل في القصة أن تعبر عن هذه الشخصيات المتصارعة والصفات المتقابلة والمواقف المتناقضة. وهو ما يهدف إليه القرآن الكريم، فقد بدأ هذا الأخير " من أول سورة فيه (البقرة) بتقسيم الناس إلى فئات ثلاث: مؤمنة وكافرة ومنافقة... وإنما هو تقسيم جديد يعتمد على قاعدة أساسية، وهي موقف الناس من العقيدة الإسلامية، ثم راح القرآن بعد ذلك يرسم صورا لهذه الفئات الثلاثة، محددا معالم كل فئة لتعرف بها، في الفكر والشعور والسلوك حتى غدت كل فئة من هذه الفئات نمطا مألوفا في الحياة البشرية، كل نمط يُعدّ نموذجا حيا لمجموعة من البشر، نموذجا مكررا في كل زمان ومكان لا تكاد تخرج البشرية عن هذه النماذج الثلاثة إلى يومنا هذا"²⁸، ومن ثمّ فطبيعي أن تكون الصفات متقابلة. ولم يقتصر الفن القصصي القرآني على ذلك، بل تعداه إلى كشف النفوس السوية وغير السوية وقسمها إلى: النفوس الأتمة بالسوء، والنفوس المطمئنة، والنفوس الزكية، والنفوس اللوامة والنفوس الباطنية"²⁹.

ولعلّ قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم المكذّبين تدخل ضمن هذا التقابل، لأنّها تمثّل هذا الصراع بين الإيمان والكفر، وتقسّم الناس فريقين متقابلين: مؤمنين مصدّقين وكافرين مكذّبين من جهة أخرى، وتعكس الفارق الشاسع بينهما من جهة أخرى، خاصّة أنّ السرد القرآني يعمد إلى إيجاد أرضية للمتلقي تُمكنه من إدراك الشخصيات السلبية إدراكا تاما، ويتمّ هذا عن طريق عقد المقارنة من خلال التقابل غير المباشر، وذلك بإيراد قصة أو موقف للشخصيات السلبية في محيط من قصص أو مواقف للشخصيات الإيجابية"³⁰. من ذلك قصص سيّدنا إبراهيم، سيّدنا نوح، سيّدنا لوط... عليهم السلام . .

4. التقابل في قصة سيّدنا يوسف - عليه السلام .:

قصة سيّدنا يوسف - عليه السلام - قصة مكتملة في القرآن الكريم، حيث وردت في سورة واحدة من بدايتها إلى نهايتها سُميت باسمه «يوسف»، ولم تتوزّع على سور أخرى كغيرها. وهي مليئة بالمتقابلات ذات العلاقة بالنص القصصي وبحكته، ولها دور رئيس فيه، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعتها التي لا يلائمها الأسلوب التقريري المباشر، وإنما تتضمّن صراعات ومواقف متقابلة عميقة تظهر لمن يتأملها. ورغم هذا فإنّ التعبيرات المتقابلة موجودة بشكل لافت للانتباه .

أ - التقابل في الشخصيات:

الشخصيات عنصراً هاماً من العناصر الفنية للقصة، والمحرك لأحداثها، والمسير لمجرياتها، والمفصح عن موضوعها. وكما هو معلوم أنّ الشخصيات تنوع في القصة بتنوع العواطف والمواقف والتصرفات، وتتقابل وتتناقض. فتتأجج عقدة القصة ويلتهب صراعها. ومن خلال الحوار والسرد، وتحرك الشخصية في محيط القصة، وتتبع القارئ لهذا التحرك... من خلال

هذا كله تفصيح عن نفسها وعن نوعها، ونعرف حقيقتها، " حيث بيّنت السردية الحديثة أننا نتعلم الكثير حول الشخصيات بمجرد تتبّع طرائق تفكيرها، ومعرفة أفكارها"³¹.

وفي قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - يتجلى عنصر الحب الأبوي؛ حبّ يعقوب ليوسف وأخيه ولبقيّة أبنائه...وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة...وعنصر المكر والخداع؛ من مكر إخوة يوسف به، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالأسوة.وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام. وبالإعجاب والتمني، والاعتصام والتأبّي.وعنصر الندم في بعض أوانه، والعتو في أوانه. والفرح بتجمّع المتفارقين...³².وهي كلّها مفارقات ومتناقضات وصراعات تعبر عنها القصة، ويتجلى فيها التقابل .

فإذا كان سيدنا يوسف - عليه السلام - يمثّل الطهارة، والصدق، والوفاء، والعفة، والعلم، والحكمة، والصبر، وقوة الإرادة، والعتو... فإنّ إخوته وامرأة العزيز يمثّلون الخيانة، والكذب، والشهوة. والحسد، والمكر... وهو ما يمثّل الصراع بين الحقّ والباطل، وما يتّصف به كلّ جانب من صفات تعكس حقيقته. وفي الوقت نفسه، فإنّ كلّ جانب يمثّل بمفرده تقابلاً، ذلك لأنّ كلّ شخصيّة في الجانبين لم تثبت على حال، بل تطوّرت وفق الأحداث وضمن الحبكة الفنيّة، وفي إطار الصراع القصصي.ولعلّ في هذا التنوّع والتقلّب يكمن عنصر التشويق والمفاجأة في السرد القصصي. وتكمن الجماليّة، " فقد يرجع التشويق في القصة إلى تعدّد مشاهدتها، وتنوّع حوادثها وتباين أشخاصها"³³. وأهمّ هذه الشخصيات هي:

• سيدنا يوسف وأبوه يعقوب - عليهما السلام .:

سيدنا يوسف - عليه السلام - شخصيّة إيجابية في كامل القصة، فقد قرّرت آيات السورة ثباته على العفاف والوفاء والخلق والصدق، رغم أنّ حالته قد تقلّبت ولم تثبت، فكانت الامتحانات وما يقابلها تلاحقه، فتقابلت عنده المنن والمحن. " إنّ سيدنا يوسف وأباه - عليهما السلام - يمثّلان نموذج الشخصيّة الإيجابية المتكاملة، حيث ينطلقان من المنطلق الإيجابي في مراحل القصة كافة وفي كلّ أدوارها، سواء أكانا في مخنة أو ضيق، أم في نعمة وسعة، فلا تفارقهما الإيجابية، ويوصل النصّ بالمتلقّي إلى أن يربط هذه الإيجابية بعلاقتهم المتينة بالسّماء"³⁴.

فمن محن سيدنا يوسف - عليه السلام - غيابات الحبّ وقعره وغوره³⁵.وعذابه الشّديد وظلمته ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يوسف: 15. إلى رهاية القصر ونوره: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف: 21.

والمثوى مكان الثوي والمبيت والإقامة، والمقصود بإكرام مثنواه إكرامه... وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثنواه في الجب، وما حوله من مخاوف وآلام³⁶، فيعيش في القصر وتقلب محنته منحة، لكن هذه الأخيرة لم تدم طويلا، وتتجدد - بعد هذا الفرج - المحنة في امرأة العزيز التي راودته فامتنع ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يوسف: 32. فأتهم وأُدخل السجن، وتأتي معه المعاناة والعذاب، وتستمر المحنة، لكنه كان دائما يعالجها بالصبر والإيمان والثبات .

وبعد هذا السجن يخرج سيدنا يوسف - عليه السلام - بسبب تفسيره لرؤية الملك، وتظهر براءته جليّة باعتراف الجميع بها، ويصبح مستخلصا للملك مكيئا أمينا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ يوسف: 51 - 55 .

وتنقلب محنته ثانية إلى منحة، وشقاؤه إلى راحة؛ فمن عذاب السجن والضعف إلى نعيم القصر والقوة، ومن العبودية والإهانة إلى السيادة والرعاية على خزائن الأرض ... وهو مصير المؤمنين والصادقين المخلصين في النهاية. فقد " كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمنًا لمحنته. ومحنته مكمنًا للمنة العظيمة عليه، وعلى آله، وعلى أهل مصر، وجميع الأمم التي تقرب من مصر"³⁷.

فقد تقلبت شخصية سيدنا يوسف - عليه السلام - من عجز الطفولة وضعفها وما رافقها، من تعب ومشقة إلى قوة الشباب وقدرته، والمطاع في أوامره، حيث " بدأت القصة برؤيا سيدنا يوسف - عليه السلام - الصبي وانتهت بواقعه وزيرا وحفيظا على خزائن الأرض، وقد أوتي الملك والحكمة"³⁸. وهكذا لم تثبت حالته في القصة، فكانت " تسير بين محورين فنيين تحكما في حركتها على مسرح القصة وهما: حتمية عجز الطفولة، وحتمية قوة قادرة بنفسها، وعلمها، وحكمتها"³⁹.

ولعلّ الشكل الآتي يلخص ذلك كله ويوضحه :

الصَّبِيّ والعَجْز والفراق وغياب البئر (منحة) ← رفاهية القصر (منحة) ← الاتهام وعذاب السجن (منحة) ← بلوغ الأشدّ والقوة والرعاية على الخزائن واللقاء (منحة).

ومن جهة أخرى "فقد يتكئ السرد القرآني على تقابلات الجمل في تصوير المشاهد وإبراز حصافة شخصية من الشخصيات"⁴⁰. ولعلّ هذه الآيات تبين ذلك، حيث يقول تعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ قَالُوا سَتَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ يوسف: 58-61

و يظهر التّقابل من خلال الجدول الآتي:

مقابلها	الآية
• وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ	• فَعَرَفَهُمْ
• فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ	• قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ
• فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي	• أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ
• وَلَا تَقْرُبُونِ	• وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

وهو ما يبيّن حصافة سيّدنا يوسف - عليه السّلام - وذكاءه وقدرته على التّصرّف في

المواقف وقوّته .

أمّا الأب ، فقد فقدَ بصره من شدّة الحزن في بداية القصة، بسبب فُقدان ابنه. ويعود إليه هذا البصر في الآخر، من شدّة الفرح بسبب ظهوره . ويبيّن فقدان الابن وظهوره، وفقدان البصر وعودته، وشدّة الحزن، وشدّة الفرح... بقي هذا الأب متماسكا في كلّ القصة التي يُمثّل فيها الشخصية الإيجابية التي لا تززعها صروف الدهر، والسرّ في كلّ هذا هو الإيمان .

• امرأة العزيز:

إذا كانت هذه الشّخصيّة تمثّل المكر والخيانة والكذب في البداية، فإنّها مع تطوّر أحداث القصة تغيّرت إلى ما يقابل ذلك، حيث " تتحرّك من خلال قانونين عامين متناقضين: حتمية السلوك الغريزي الوحشي، وحتمية السلوك الرّوحاني للنفس البشريّة المستوحى من يقظة الضّمير المتهذّب بالدين. وقد استعرض المنهج الفنّي هذه الشّخصيّة، وهي تمارس هذه الصّفات بصورة فنيّة وجليّة وواضحة، فكان سلوكها يمتاز بالصّخب، والصّجيج، والوحشيّة والقسوة

أولا، والهدوء والعقل ثانيا" ⁴¹. وهو ما يدلّ على وجود بذرة الخير والسرّ في النفس البشريّة .

ويتجلّى هذا التّغيّر في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يوسف: 51 - 53 .

لقد كان قولها هذا اعترافا صريحا ببراءة سيّدنا يوسف - عليه السّلام - من جهة، ودليلا

على تغيّر شخصيتها من جهة أخرى. وتظهر امرأة أخرى بشخصيّة جديدة تناقض الشّخصيّة الأولى؛ من شخصيّة سلبية إلى أخرى إيجابية.

• إخوة سيّدنا يوسف:

كانوا في البداية رمزا للمكر والحسد والكذب والخيانة، أقلها أنهم كانوا " يحسّون برابطة الأخوة بينهم إحساسا قويا قوة إحساسهم بغربة يوسف وأخيه؛ إذ يصفون أنفسهم بلفظ عصبية و يجعلون هذا الوصف مقابلا ليوسف وأخيه مرة وليوسف فقط أخرى ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف: 8. وكذلك ﴿قَالُوا لَئِن آكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ يوسف: 14⁴².

وهم - أيضا - يمثلون التغير في القصة، ذلك لأنهم بعد أن كانوا رمزا للسلبية في بدايتها، انقلبت شخصياتهم وندموا على أفعالهم في نهاية القصة وطلبوا المغفرة ، ويتجلى ذلك في قوله تعالى على ألسنتهم في الآيتين التاليتين:

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يوسف: 91.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ يوسف: 97.

يقول أحدهم: " وهكذا الحال بالنسبة لقصة يوسف، مع الشخصية الجماعية (إخوة يوسف)، وشخصية (امرأة العزيز والنسوة)، إذ ظهروا جميعا بملامح سلبية في بداية القصة، وانتهوا بملامح إيجابية⁴³، وهذا يدل على استعداد النفس البشرية للخير والشر، وأن هذين الأخيرين مركزان فيها تحتاجان إلى إيقاظهما .

وإذا كان الصراع بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، وأن الحق لا بد أن ينتصر في الأخير، فإن الباطل لا بد أن يُراجع نفسه، ويعترف بالحق ويرجع إلى الجادة، وهو ما مثلته امرأة العزيز وإخوة سيدنا يوسف. وهو من بين ما أرادت القصة الوصول إليه، وما أراد التعبير القرآني الحث عليه، والترغيب فيه، لأنّ عدم التماهي في الباطل، وعدم الإصرار عليه هو اعتراف بالحق ورجوع إليه، وهو ما يُغفّر.

يقول تمام حسان عن القصة كلها: " فأول القصة خطيئة وآخرها مغفرة لهذه الخطيئة وفيما بين هذه الخطيئة، وتلك المغفرة نجد صراع الشهوة والفضيلة كما نجد مقابلة الرق بالسيادة والخمول بالتفوق وال فشل بالنجاح واليأس بالفرح والمرض بالشفاء، وبين كلّ قطب من أقطاب التّقابل وصاحبه إضافة منطقية عضوية إلى نسيج القصة لا يستغني تركيبها عنها لأنّ كلّ زوج تقابلي ممّا سبق له دور حيوي هامّ في بناء القصة"⁴⁴.

ب - بناء السّورة على التّقابل:

ولما كانت شخصيات القصة بهذه الصّفة التي رأيناها من التناقض والتّصارع والتّقابل، فإنّ تعبيرات السّورة عكست هذه الحالة، فكان من نتائج ذلك أن بُنيت على تعبيرات كثيرة متقابلة وبطريقة فنيّة. وهي في مجملها تعبيرات تكرّرت، تولّف جزءا من جوّ السّورة وشخصيتها، ومنها:

- تقابلات بين العلم والجهل:

وردَ ذِكْرُ العلمِ وما يقابله من الجهلِ وقلةِ العلمِ في مواضعٍ شتى⁴⁵ ، وعلى مستويين؛ الآية الواحدة، أي في السياق الواحد، والآيات المتباعدة، أي في السياقات المختلفة. وسنمثل للتوعين: المستوى الأول:

ويظهر في الآية الواحدة، من ذلك بين:

• « ذو علم / لا يعلمون »:

﴿ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: 68 .

• « أعلم / لا تعلمون »:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: 86 ، وورد ذكرها - أيضا - في الآية: 96 .

• « علمتم / جاهلون » :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يوسف: 89 .

المستوى الثاني:

ويظهر بين آيات متباعدة في السورة منها :

آياتُ نفي العلم	آياتُ إثبات العلم
• ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: 21 .	• ﴿ وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يوسف: 22 .
• ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: 40 .	• ﴿ ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ يوسف: 37 .
• ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ يوسف: 44 .	• ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف: 101 .

إلى غيرها من الآيات التي جمعت بين العلم الذي يتصف به سيدنا يوسف - عليه السلام - ، والمؤمنون المخلصون، ونفيهِ عن مقابله، وعن غيره من الكافرين الجاحدين، لذلك يظهر الفارق، وتنجلي الهوية بين الفريقين. وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم⁴⁶ التي من بينه قيام القصة على هذا التقابل الجلي .

- تقابلات مختلفة:

إضافة إلى آيات العلم والجهل، هناك نماذج أخرى من المتقابلات المختلفة، وقد ذكرنا

بعضها في عنصر (شخصية سيدنا يوسف)، وهذه آيات أخرى منها:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يوسف: 26-27 .

وهو تقابل يُحَقِّقُ في الظالم والمظلوم، ركّز عليه السرد القرآني ليجعله دليلاً على صدق سيّدنا يوسف، وكذب امرأة العزيز، لأنّ الآية التي قبلها صرّحت بقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ يوسف: 25. فقد برأت آية التقابل سيّدنا يوسف - عليه السلام - وقدمت حلاً للأزمة، ذلك " لأنّ الهاجم على المرأة، وهي تدافعه، إنّما يظهر أثر دفاعها في مقدمة قميصه. والهابس من المرأة العالقة بثوبه، إنّما يظهر أثر ذلك من الخلف: لأنّه يكون مستديراً لها، وهي تجاذبه من خلف" . كانت هذه الآية عنصراً هاماً، ومحركاً فعلاً لأحداث القصة التي ارتبطت " بالقميص في كلّ مراحلها حتى أصبح قميص يوسف عنصراً من عناصرها"⁴⁸.

وما يؤكّد ذلك أنّه ورد في أربع مواضع متقابلة في القصة: أولاً فقد ظهر في بداية القصة ونهايتها، وثانياً: أنّ القميص الأوّل المملّخ بالدم كان مصدر الهمّ والألم والوجع لسيّدنا يعقوب، وأمّا القميص الثّاني فكان مصدر شفاء وفرحة له. وثالثاً: أنّ القميص الأوّل كان دليلاً على الافتراق والانقطاع، فيما جاء الثّاني ليكون الأمل والإشراق والحياة الجديدة المنفتحة على سعادة لمّ الشّمل من جديد. ورابعاً: أنّ قميص يوسف المملّخ بدم كذب، يُبطل أثره قميص آخر فيه ربح صدق .⁴⁹

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف: 31 .

ففي قولهنّ هذا، نفّى البشريّة عن سيّدنا يوسف وإثبات له غيرها، أي الملكيّة، لما رأين من جماله .

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يوسف: 39 .

وهو غير صريح، ذلك لأنّ «أرباب متفرقون» لا تقابل «الله الواحد» معجمياً، وإنّما هو تقابل أفرزه السّياق؛ فهما معبودان متقابلان، ومن يغبدهما متقابلان، فعابد الأوّل، أي الأرباب هو الكافر، وعابد الثّاني، أي الله الواحد هو المؤمن .

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ يوسف: 41 .

هذا تأويل سيّدنا يوسف للرؤيا التي رآها صاحباها في السّجن، ومعناه أنّ أحدهما يُعفى عنه والآخر يُقتل. وهو تقابل - أيضاً كسابقه - غير صريح. ومن جمالياته "أنّه يُفعل العلاقة بين النّص والمتلقّي، لأنّ التّضاد هنا خفي غير ظاهر، يتطلّب من المتلقّي جهداً وتأملاً وتأنياً في كشفه، فالنّص يفاجئ القارئ بما لا ينتظره حرفياً"⁵⁰.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ يوسف:43.

وهذه المتقابلات كانت "هي المكوّنات الرئيسة للرؤيا، وهي المفتاح الذي أُعْتُمِدَ عليه للإفصاح عن المكنون، وللوصول إلى التأويل المؤدّي إلى فكّ اللّغز، وتأمين الحلالّ للمعضلة قبل ظهورها"⁵¹، ذلك لأنّ سيّدنا يوسف له قدرة على تأويل الرّؤى، ما جعله خلاصا للملك وللبلاد ولغيرها، وخالصا لنفسه من هذه المحن وتمكينه من القوّة والخزائن والملك، خلافا للأولى التي ظهرت في بداية السّورة، والتي ظهرت مع الضّعف وبدأت معها المحن، "فجعل الله الرّؤيا أولا ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة ظهورها"⁵². وبين الرّؤيتين الأولى والثانية تسلسلت الأحداث واشتدّ الصّراع، وتقابلت المواقف والشّخصيات.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ يوسف:67.

وهو حشدٌ للكثير من المتقابلات المتنوّعة في التّعبير عكّس المتناقضات في القصة. وعكّس التّقابل في شخصياتها ومواقفها وتصرفاتها، ووضّح الفوارق بينها. وأهميّة اجتماع هذه المتقابلات تكمن في تصوير المشهد تصويرا ناطقا، وفي ترابط وتماسك النّص القصصي. إضافة إلى "أنّ هذا الحشد و التّنوع من المتقابلات لينطوي على جماليّة المبني الفنّي للعنصر القصصي الذي يوظفه النّص لبلورة الهدف"⁵³ الذي يسعى إلى توضيحه وتبليغه، لأنّ "الفنّ في القصص القرآني في المقابلة بين التّريغيب والتّرهيب والوعد والوعيد، وإنّ الجنّة والنّار ليتقابلا في أكثر القصص، وإبراز سنة الله في الكافرين"⁵⁴.

وقد تقابل التأويل بالرؤيا في آخر القصة، حيث بدأت بالسّجود وانتهت به أيضا، لكن الأوّل كان رؤية، والثاني كان حقيقة. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ يوسف:100.

خاتمة :

الخلاصة التي توصل إليها هذا البحث نُقدّمها في النتائج الآتية:

• إذا كان التّقابل هو الجمع بين شيئين أو أكثر وضدّهما في الكلام، فينتج عنه تعارض ومفارقة ، فإنّه يظهر أكثر في القصة. فالتقابل بما يُمثّله من تضاد ومفارقة وتناقض يُشكّل أساس النّفس البشريّة، وأساس الحياة، والقصة تقوم على تصوير ما في النفس، وما في الحياة، وتقوم على تقابل المواقف والأفكار. فمحرك القصة هو الصّراع، ومحرك الصّراع هو التّقابل . وهو ما التقى فيه التّقابل والقصة ، وتجسّد في سورة سيّدنا يوسف - عليه السلام - موضوع بحثنا، باعتبارها سورة تُشكّل قصةً مكتملة من بدايتها إلى نهايتها، مليئة بالصّراعات والمواقف ، وبالتعبيرات المتقابلة.

• مراعاة القرآن الكريم المثل الفطري للإنسان نحو القصة، حيث استعملها بكثرة، واتخذها وسيلةً لتبليغ دعوته، وتحقيق مقاصده ، فدارت أحداثها في محيط الدّعوة إلى الله، والموعظة والاعتبار، وذلك لضمان سعادة الإنسان في الدّنيا والآخرة . ما جعلها تعبر عن محورين متقابلين، هما الإيمان والكفر ، وما يتفرّع عنهما من حقّ وباطل، فضيلة ورذيلة، عاقبة الإيمان وعاقبة الكفر ...

• سيّدنا يوسف - عليه السّلام - مثّل الطهارة، والصّدق، والوفاء، والعفة، والعلم، والحكمة، والصّبر، وقوة الإرادة، والعمو... وبالمقابل إخوته وامرأة العزيز مثل الخيانة، والكذب، والشّهوة، والحسد، والمكر... وهو في الأصل صراع بين الحقّ والباطل. وأيضاً تقابلُ المنن والمحن عند سيّدنا يوسف - عليه السّلام - ؛ من عجز الطفولة وضعفها والفرق، وغيابت الجبّ وعذابه وظلمته إلى رفاهيّة القصر الذي تربّى فيه ، ثم من المحنة في امرأة العزيز وعذاب السّجن والضعف إلى نعيم القصر والقوّة، ومن العبودية إلى السّيادة على خزائن الأرض واللقاء ... وهو مصير المؤمنين المخلصين في النهاية.

• ظهور التقابل في شخصية سيّدنا يعقوب - عليه السّلام - بين فقدان البصر ورجوع البصر، وشدّة الحزن وشدّة الفرح ، وفقدان الابن واللقاء به ، مع الثبات والصبر. والسّر في كلّ هذا هو الإيمان .

• انقلاب شخصية امرأة العزيز، وتقابل سلوكها بين المكر والخيانة والكذب، والصّخب، والضّجيج، والوحشيّة والقسوة أولاً، و يقظة الضّمير المهذب بالدين والهدوء والعقل ثانياً . حيث ظهرت بشخصيّة إيجابيّة تناقض الشّخصيّة الأولى السّلبيّة . وهو ما يدلّ على وجود بذرة الخير والشرّ في النّفس البشريّة.

• إخوة سيّدنا يوسف رمزُ المكر والحسد والكذب والخيانة والسّلبيّة في البداية، ثمّ انقلبت شخصياتهم وندموا على أفعالهم في نهاية القصة وطلبوا المغفرة ، وانتصارُ الحقّ في الأخير، وتراجعُ الباطل .

• تناقضُ وتصارُع وتقابلُ شخصيات القصة، انعكس على تعبيرات السّورة، فبنيت على التعبيرات المتقابلة، مثل: (فَعَرَفَهُمْ ≠ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ / قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ ≠ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ / أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ ≠ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ...)، ومثل: التّقابلات بين العلم والجهل ، وتقابلات أخرى مختلفة مثل : تقابلات في آية القميص الذي قُدّ مِنْ قُبُلٍ والذي قُدّ مِنْ دُبُرٍ ، وما ينتج عنه من كذب وصدق ، وبين البشريّة (بشر) والملكيّة (ملك)، وبين أرباب متفرّقين والله الواحد، وبين العفو عن سجين وقتل آخر، وبين البقرات السّمانيّ والبقرات العجاف والسُنبلات الحُضُر والسُنبلات اليابسات ...

• ارتباط التقابل بالقميص الذي هو عُنصر من عناصر القصة، ومحرّك فعال لأحداثها، بمواضعه المتقابلة؛ ظهوره في بداية القصة ونهايتها، والقميص الأوّل المملّخ بالدم مصدر الهمّ لسيدنا يعقوب، والثاني مصدر شفاء وفرحة له. وأيضا القميص الأوّل دليل على الافتراق والانقطاع، والثاني مصدر الأمل والسعادة ولمّ الشَّمْل . وأخيرا قميص سيدنا يوسف المملّخ بدم كذب، يُبطل أثره قميص آخر فيه ربح صدق .

• جميعها متقابلات متنوّعة عكّست المتناقضات في القصة، وعكّست التقابل في شخصياتها ومواقفها وتصرفاتها، ووضّحت الفوارق بينها، وصوّرت المشهد تصويرا ناطقا، وساهمت في تماسك النص القصصي، وفي جماليّة مبناه الفنّي، للوصول إلى الهدف الذي يسعى القرآن الكريم إلى تبليغه ، وعبّرت عن مصير الإيمان والإخلاص، وهو التصر والخلّاص بعد المحن، والقوّة بعد الضعف... وقدّمت في مجموعها دروسا وعظايات تدلّ على حماية الله - سبحانه وتعالى - لعباده ورعايته لهم . لذلك فقد وصفها سبحانه وتعالى في بدايتها بأحسن القصص، في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف 3. وختّمها بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف:111.

¹ . الجوهري، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط1987، 4م، مادة (قبل)، 5/ 1797.

² . ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، دت، مادة (قبل)، 11/ 534.

³ . السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق وتعليق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص533.

⁴ . الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبّط وتصحيح جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1983م، ص137.

⁵ . الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 198.

⁶ . ينظر: منى الساحلي، التضاد في النقد الأدبي مع دراسة تطبيقية من شعرا أبي تمام، مخطوط الإجازة العالية في الأدب العربي، السنة: 1993، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والتربية، جامعة قاربونس، الجماهيرية العربية الليبية، ص7. عاصم محمد أمين، لغة التضاد في شعر أمل دنقل، دار صفاء، عمان الأردن، ط1، 2005، ص 28 وما بعدها .

7. لسان العرب، مادة (قصص)، 73/7، 74.
8. مرتضى الزبيدي، تاج العروس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، د ت، 4/421 وما بعدها.
9. خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها (نظرية بناء القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب، باتنة، د ط، د ت، ص 126.
10. عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، د ط، د ت، ص 44 وما بعدها.
11. ينظر: محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، دون دار نشر، ط 1، 1993، ص 18.
12. ينظر: توفيق الحكيم، فنّ الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1973، ص 149.
13. ينظر: عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، 1972، ص 237.
14. ينظر: محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى، د ط، د ت، ص 101.
15. ينظر: عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، فصلت للدراسات، حلب، ط 1، 2001، ص 259.
16. عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 8.
17. ينظر: محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، 108.
18. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 73.
19. شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقويم، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص 221.
20. يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزّمان، دمشق، ط 1، 2010، ص 261.
21. وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص 265.
22. يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 94، 95.
23. المرجع نفسه، ص 275.
24. محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص 17، 18.
25. ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 94.
26. عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص 259.
27. المرجع نفسه، ص 305.
28. المرجع نفسه، ص 301.
29. محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص 52.
30. الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 153، 154.
31. المرجع نفسه، ص 93.
32. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط 17، 1412 هـ، 4/1962.
33. عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص 259.
34. الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 72.
35. ينظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، ط 1، 1417 هـ، 1997، 2/38.
36. ينظر: في ظلال القرآن، 4/1978.

37. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، تج عبد الله بدران وعلي عبد الحميد، دار الخير، دمشق، ط1، 1995، ص 140.
38. عبد العزيز إبراهيم، أسلوب المقابلة في القرآن الكريم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2010، ص330.
39. خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها، ص 172.
40. الشهرزوردي، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 274.
41. خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها، ص 195.
42. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993، ص578، 579.
43. الشهرزوردي، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص61.
44. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص558، 559.
45. ينظر: في ظلال القرآن، 4/ 1966.
46. في ظلال القرآن، 4/ 1967.
47. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، تج: عبد الله بدران وعلي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير، دمشق، ط1، 1995، ص143.
48. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص581.
49. ينظر: المرجع نفسه، ص 575.
50. الشهرزوردي، جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 271.
51. المرجع نفسه، ص267.
52. أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964، 9/ 198.
53. جماليات التلقي في السرد القرآني، ص 263.
54. محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص 10.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أ - الكتب:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دارصادر، بيروت، ط1، دت.
2. القرطبي، محمد شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تج: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964.
3. حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993.
4. الحكيم، توفيق، فنّ الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973.

5. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تج: أحمد عبد الغفار عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987 م.
6. خالد أبو جندي، الجانب الفنّي في القصة القرآنيّة منهجها وأسس بنائها (نظرية بناء القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب، باتنة، د ط، د ت.
7. السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تج وتع: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.
8. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412 هـ.
9. الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي، التعريفات، ضبّط وتصحيح جماعة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1983 م.
10. شفيق السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.
11. عاصم محمد أمين، لغة التضاد في شعر أمل دنقل، دار صفاء، عمان الأردن، ط1، 2005.
12. الراغب، عبد السلام، وظيفة الصورة الفنّيّة في القرآن الكريم، فصّلت للدراسات، حلب، ط1، 2001.
13. إبراهيم، عبد العزيز، أسلوب المقابلة في القرآن الكريم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2010.
14. عتيق، عبد العزيز، في النقد الأدبي، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط2، 1972.
15. الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، د ط، د ت.
16. النجار، عبد الوهاب، قصص الأنبياء، تج: عبد الله بدران وعلي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير، دمشق، ط1، 1995.
17. الدالي، محمد، الوحدة الفنّيّة في القصة القرآنيّة، دون دار نشر، ط1، 1993.
18. الغزالي، محمد، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى، د ط، د ت.
19. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، ط1، 1417 هـ، 1997.
20. مرتضى الزبيدي، ، تاج العروس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، د ت.
21. الشهرزوري، يادكار لطيف، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزّمان، دمشق، ط1، 2010.

ب - الرسائل:

- 22 الساحلي، منى، التضاد في النقد الأدبي مع دراسة تطبيقية من شعراي تمام، مخطوط الإجازة العالية في الأدب العربي، السنة: 1993، قسم اللغة العربيّة، كلية الآداب والتربية، جامعة قارونوس، الجماهيرية العربية الليبية.